

هل الإنسان هو المخاطَب بالدين؟ ولماذا نشعر أحياناً أن الدين يقيّد حريتنا؟

الإنسان هو المخاطَب بالدين؛ بيان مكانة الإنسان في علاقته بالدين والكمال والقلب السليم

في كثير من مواقف الحياة اليومية، قد يرى الإنسان أمرًا ما عائقًا في طريق حياته، لا لأن ذلك الأمر عائق في ذاته، بل لأنه لم يدرك علاقته الصحيحة بنفسه. فالمريض الذي ينظر إلى وصفة الطبيب على أنها مجرد مجموعة من المحرّمات والقيود، لم يفهم بعد الصلة بين تعليمات العلاج وحقيقة المرض. بالنسبة إليه، قد يبدو الامتناع عن بعض الأمور تقييدًا لحريته، أما من أدرك مكانة الوصفة ضمن منظومة العلاج، فإنه يرى في ذلك الامتناع نفسه وسيلةً لاستعادة الحياة والعافية.

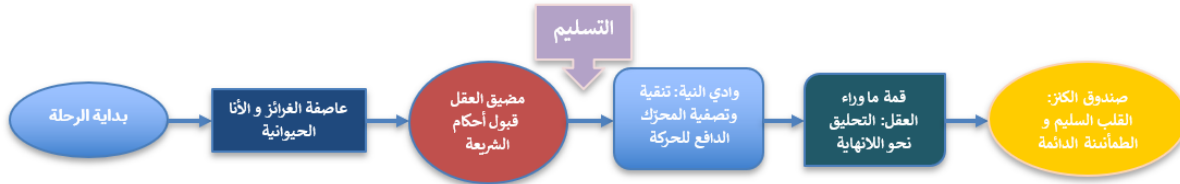
تُفهم قضية الدين غالبًا بالطريقة نفسها. فما دام الإنسان يعرّف نفسه في حدود حاجاته الطبيعية والعاطفية والمعيشية والبيولوجية، فسيبدو له الدين مجرد مجموعة من الأوامر والنواهي التي تتعارض باستمرار مع رغباته الآنية. أما إذا اتضح له أن حقيقة الإنسان لا تنتهي عند هذا البعد الطبيعي، وأن له وجودًا يتجاوز عالم الطبيعة، فإن نظره إلى الدين ستتغير؛ إذ لن يعود يراه نظامًا خارجيًا يفرض القيود، بل برنامجًا يرعى حقيقة وجوده، ويهديها، ويقودها إلى النمو والكمال.

تخيّل مسافرًا يقف على أعتاب رحلة لا نهاية لها، وبين يديه خريطة دقيقة تحدد له الطريق والغاية. فإذا كان هذا المسافر لا يرى نفسه إلا في حدود وسيلة النقل التي يستقلها (الجسد) واحتياجات الرحلة الأولية، فلن تكون الخريطة في نظره سوى مجموعة من القيود المرهقة. أما إذا أدرك أنه ليس تلك الوسيلة، بل هو الطيّار الذي ينبغي له أن يغادر غلافًا جويًا محدودًا إلى فضاء لا متناهٍ، فإن قيمة الخريطة ومكانتها ستتبدلان تمامًا.

فالإنسان هو المخاطَب بالدين، ولا يمكن إدراك المكانة الحقيقية للدين إلا بفهم هذه الحقيقة فهمًا صحيحًا. فالدين لا يتوجه إلى الجانب الطبيعي من وجود الإنسان، وإنما يخاطب جانبه الإنساني الحقيقي؛ ذلك الكائن الذي لا تُختزل حياته في أبعادها الطبيعية البيولوجية، قد جاءه الدين لا بوصفه نظامًا خارجيًا، بل بوصفه دليلًا إرشاديًا متخصصًا يهدف إلى تنمية البعد ما وراء العقلي وإيصاله إلى كماله.

ومن هنا، فإن التحدي الأكبر في التعامل المعاصر مع الدين لا يكمن في الدين نفسه، بل في عدم معرفة المخاطب الحقيقي به؛ أي في الغفلة عن الذات الحقيقية للإنسان والانشغال المفرط بالذات الطبيعية. ولهذا، فإن نقطة البداية في أي بحث متماسك حول الدين ليست الدين نفسه، وإنما الإجابة عن السؤال الآتي: **من هو المخاطب بالدين؟** فإذا جهل المخاطب، أُسيء فهم طبيعة الخطاب نفسه. إن جانبًا كبيرًا من ابتعاد الإنسان المعاصر عن حقيقة الدين لا يرجع إلى صعوبة الدين، بل إلى غموض الصورة التي يحملها عن الإنسان. فعندما يختزل الإنسان نفسه في بعده الطبيعي، يبدو له كل ما شُرّع لتنمية مرتبته الإنسانية العليا ثقیلاً، أو غير ضروري، أو حتى معيقاً لحياته.

أما إذا عُرِفَت حقيقة الإنسان على وجهها الصحيح، اتضح أن الدين ليس منافساً للإنسان، ولا يقف في مواجهة رغباته الحقيقية، بل هو الحافظ لإمكان كماله، والرفيق له في مسيرته نحو الحياة الأبدية. انطلاقاً من ذلك، تصبح القضية الأساسية هي بيان: لأي إنسان جاء الدين؟ وما غايته؟ وكيف تُفهم علاقة الأحكام بالبنية الوجودية للإنسان؟ ولماذا تتجلى الثمرة النهائية لهذا الطريق في «القلب السليم»؟



بيان المكانة الوجودية للإنسان وعلاقته بالمبدأ

إن علاقة الإنسان بالحق تعالى ليست علاقةً اعتباريةً أو تعاقدية، بل هي علاقة وجودية أصيلة. فالإنسان من حيث ذاته لا يملك شيئاً، إذ إن كل وجوده وقدرته وإرادته وكمالاته قائمةٌ بالمبدأ سبحانه. وفي هذا الأفق، لا تعني ملكية الله للإنسان مجرد سلطة تشريعية أو ربوبية أخلاقية، بل تعني أن الإنسان مملوك لله في أصل وجوده وذاته. فهو في حقيقته لله، ولا يملك أي مرتبة مستقلة خارج هذا الارتباط. ومن هنا يتبين أن كل فهم للإنسان ينفصل عن الله هو فهم ناقص، بل باطل في نهاية المطاف؛ لأن حقيقة الإنسان لا تُعرف إلا من خلال نسبته إلى مبدئه.

هذا الفهم للعلاقة بين الإنسان والله، يفضي أيضًا إلى فهم خاص لمعنى الكمال. فإذا كان وجود الإنسان قائمًا بالله، فإن كماله لا يمكن أن يُعرّف إلا في إطار القرب من ذلك المبدأ. ومن ثم، فإن كمال الإنسان لا يتمثل في تنمية قدراته الذهنية فحسب، ولا في توسيع إمكاناته المادية، ولا في إشباع رغباته الطبيعية، وإنما يتحقق في سير وجودي متواصل نحو الحق تعالى.

على هذا المستوى تُفهم حقيقة «لا إله إلا الله». فهي ليست مجرد نفي للمعبودات الباطلة على مستوى الاعتقاد اللفظي، بل هي الأساس الوجودي لحياة الإنسان؛ إذ تعني نفي كل تعلق يحول بين الإنسان وبين مبدئه المطلق، وإثبات توجهه الكامل والشامل نحو الحق سبحانه. وبهذا المعنى، فإن «لا إله إلا الله» ليست مجرد قضية إيمانية، بل هي أساس الخلق، والقاعدة التي يقوم عليها كمال الإنسان.

وفي هذا السياق أيضًا يتجلى معنى ذكر «الحمد لله». فعندما يُقال إن الحمد كله لله، فإن المقصود أن كل كمال يظهر في الإنسان أو في الكون إنما هو في حقيقته لله سبحانه. فالعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، وكل صورة من صور الكمال، إنما تقوم بالله في أصلها، وما يتجلى منها في الإنسان ليس إلا شعاعًا من ذلك الكمال المطلق.

وثمره هذا الفهم أن الإنسان كلما اقترب من حقيقته، ازداد إدراكًا لاعتماده الوجودي على الله، وتحرر من وهم الاستقلال. وعلى العكس من ذلك، كلما غفل عن هذه الحقيقة، ازداد انغماسًا في وهم الاكتفاء بالنفس، وسقط في الغفلة، حتى ينتهي به الأمر إلى الضلال.

من هنا يمكن أيضًا فهم العلاقة الوثيقة بين معرفة الله ومعرفة النفس؛ فإذا كانت حقيقة النفس مرآة للرب، فإن معرفتها تفتح الطريق إلى معرفة الخالق. فإذا تطهرت النفس من أدرانها وتحررت من تعلقاتها، أصبحت قادرة على إظهار هذه النسبة وإبرازها. وبهذا المعنى، فإن معرفة النفس ليست مجرد تأمل نفسي أو دراسة سيكولوجية، بل هي ضرورة وجودية لا غنى عنها للوصول إلى معرفة الحق تعالى. فالإنسان ما لم يعرف نفسه، لن يدرك علاقته بمبدئه، وما لم يدرك هذه العلاقة، فلن يتجلى له الدين في أفقه الحقيقي.

التمييز بين مراتب الوجود: الذات الحقيقية في مقابل الذات الطبيعية

بعد بيان العلاقة الوجودية بين الإنسان ومبدئه، لا بد من توضيح البنية الداخلية للإنسان؛ لأن الدين قد نزل بما يتناسب مع هذه البنية. فالإنسان ليس كائنًا أحادي البعد، بل تتعدد فيه المراتب والطبقات؛ تبدأ بالحس

والخيال والوهم، ثم ترتقي إلى العقل، وتتجاوزه إلى ما وراء العقل. وما يكتسب أهمية في هذا السياق هو أن حقيقة الإنسان لا تختزل في مراتبه الوجودية الدنيا. فمع أن الجانب الحسي والخيالي والوهمي حاضر في حياة الإنسان، إلا أنه لا يمثل حقيقته النهائية. وحتى العقل ليس نهاية المسير الإنساني. بل هناك مرتبة وراء العقل ترتبط بالفطرة، ومحبة الله، والاستعداد للتوجه المباشر إلى الحق سبحانه. هذه المرتبة السامية هي المخاطب الحقيقي بالدين.

من هنا، فإن التمييز بين «الذات الحقيقية» و«الذات الطبيعية» يُعد من أهم الأسس لفهم الدين. فالذات الطبيعية هي ذلك الجانب من الإنسان المرتبط باللذة، والخوف، والتعلق، وحب الراحة، والعادات، والارتباطات الدنيوية. وهي الميدان الذي تنشأ فيه كثير من الميول، والمقاومات، والشبهات. أما الذات الحقيقية، فهي البعد الفطري والإلهي في الإنسان، الذي يحفظ صلته بالحق تعالى، ويحمل في داخله الاستعداد للوصول إلى الكمال. إذا لم يميز الإنسان بين هذين البعدين، اختل فهمه لنفسه، واختل فهمه للدين تبعاً لذلك.

وينشأ الكثير من الشعور بصعوبة الالتزام بالدين من هذا الخلط نفسه. فعندما يُقال إن هناك مشقات وضغوطاً وقيوداً في طريق الدين، ينبغي أولاً أن نسأل: على أي جانب من الإنسان تقع هذه المشقات؟ والجواب أنها لا تقع على الذات الحقيقية، وإنما تتوجه إلى الجانب الحيواني والطبيعي من الإنسان. فالذي يتأذى من الحرمان، والقيود، والمجاهدة، ليس الحقيقة الإلهية الكامنة في الإنسان، وإنما ذلك الجزء الذي أُلِف الطبيعة واستوطنها. ولذلك، فإن النظر إلى الأحكام الشرعية على أنها مصدر للمعاناة هو في الغالب نتيجة هذا الخطأ، وهو أن الإنسان يظن أن ذاته الحقيقية هي ذاته الطبيعية. أما إذا استقام هذا الفهم، فسيتضح أن الدين لا يضر الإنسان، وإنما يعمل على تهذيب جانبه الطبيعي، ليكون في خدمة جانبه الفطري.

ومن هذا المنطلق، ينبغي فهم رسالة الدين من خلال العلاقة بين الطبيعة والفطرة. فالدين لم يأتٍ للقضاء على الطبيعة أو إلغائها، وإنما جاء ليجعلها خادمةً للفطرة. فإذا تُركت الطبيعة دون تهذيب، أصبحت مصدرًا للشبهات، والغفلة، والتعلق، والتراجع عن طريق الكمال. أما إذا صُبِطت ورُبِّيت، تحولت إلى أداة تعين الإنسان على ارتقاء مرتبته العليا.

ومن هنا أيضًا يمكن فهم سبب انطلاق كثير من الانحرافات من مستوى الطبيعة. فَمَنْشَأُ كثير من الإشكالات والاعتراضات والأعذار هو تلك اللحظة التي يجعل فيها الإنسان رغباته الطبيعية معيارًا للحق والباطل. وعندئذٍ، لا يعود الدين في نظره نورًا يفتح له آفاق الهداية، بل يتحول إلى عائق يحد من رغباته. كما أن نسيان الله يقود، في هذا السياق، إلى نسيان الإنسان لنفسه. فحين يغفل الإنسان عن مبدأ وجوده، يفقد أيضًا معرفته بحقيقته. ونتيجة ذلك تنقلب جميع جهوده، مهما بدت عظيمة أو مثمرة في ظاهرها، إلى ضرر عليه، لأنها بُنيت على تصور خاطئ لذاته.

أما إذا عرف الإنسان نفسه، فقد اهتدى إلى الطريق الحقيقي للحياة. وعندئذٍ يدرك أن قضيته الأساسية ليست مجرد إدارة حياته الطبيعية، بل حفظ الحقيقة التي أودعها الله فيه، وتنميتها؛ تلك الحقيقة التي خُلقت لتسير في طريقها نحو الحق تعالى.

تعريف الدين في ضوء حقيقة الإنسان

عندما تتضح البنية الوجودية للإنسان، يزول الغموض عن حقيقة الدين أيضًا. فالدين في هذا الأفق، ليس مجرد مجموعة من الشعائر، أو الطقوس، أو المعارف المتفرقة، بل هو نظامٌ إلهيٌّ متخصص لهداية الإنسان في طريق الكمال. فإذا كان الإنسان كائنًا ذا مراتب متعددة، وكانت حقيقته كامنة في بُعده الفطري والإلهي، فإن الدين هو المنظومة التي تعمل على تنمية هذا البعد، وإزالة العوائق التي تحول دون ارتقائه، والمحافظة على صلته الدائمة بمبدئه. ومن ثم، فإن الدين ليس أمرًا طارئًا يُضاف إلى حياة الإنسان من خارجها، بل هو من مقتضيات وجوده ولوازم حياته. فكما أن كل موجود يحتاج إلى قانون ينسجم مع بنيته ليبلغ غايته، كذلك يحتاج الإنسان إلى القانون الإلهي، ليصل إلى السعادة والكمال.

في هذا التصور، تقوم علاقة الدين بالإنسان على الرعاية والحفظ، لا على المواجهة والصراع. فالدين لا يقف في وجه الإنسان، بل يرافقه في رحلته الأبدية. ومهمته أن ينسق بين قواه المختلفة، ويخلصه من التشتت، ويوجه حركته نحو الغاية التي خُلِق لها. فإذا تُرك الإنسان من غير هداية الدين، لن تتآلف قواه الداخلية، بل تدخل في صراع فيما بينها؛ فتمضي الطبيعة في طريقها، وتستأثر الأوهام والخيالات بقيادة النفس، بينما يُهْمَش العقل وتُحجب الفطرة. وقد جاء الدين على وجه التحديد ليزيل هذا الاضطراب، ويقيم في داخل الإنسان نظامًا وجوديًا متوازنًا.

ومن هنا تتضح أيضًا الرسالة الأساسية للدين. فالإنسان يحمل في أعماقه شوقًا لا حدَّ له إلى اللامتناهي، ولا يستطيع أي شيء محدود أن يروي هذا الشوق أو يشبعه إشباعًا كاملاً. فإذا لم يجد هذا الميل اللامحدود طريقه الصحيح، تشتت بين غايات زائفة ومطالب وهمية، أما إذا وُجِّه الوجهة الصحيحة، اتجه نحو الحق المطلق.

وهنا تتجلى حقيقة «لا إله إلا الله» بوصفها قاعدةً تربويةً كبرى؛ فالإنسان مدعوٌّ إلى أن يتحرر من كل ما يتخذ مكان الله في مركز قلبه، حتى يتصل شوقه اللانهائي بغايته الحقيقية، وهي الحق سبحانه.

وعلى هذا الأساس، فإن الدين الخالص هو الدين الذي لا يُتخذ وسيلةً للوصول إلى غير الله. فإذا أصبح الدين أداةً لتحقيق المصالح الدنيوية، أو نيل الشهرة، أو اكتساب المنزلة، أو طلب السلطة، أو إشباع الأهواء، فقد انحرف عن غايته الحقيقية. إنما يكون الدين خالصًا حين لا يختلط في علاقة الإنسان به شكٌّ، ولا هوى، ولا ازدواجية، بل يكون همه الأول ووجهته الدائمة هو التقرب إلى الحق تعالى.

وهذا الإخلاص يخرج الدين من كونه مجموعةً من المظاهر والشكليات، ليجعله حقيقةً حيَّةً تهدي الإنسان، وتوجِّه مسيرته، وتقوده نحو كماله المنشود.

فلسفة الأحكام؛ تربية الإنسان ليتشبه بالحق

لا يمكن فهم الأحكام الشرعية بمعزل عن هذا التصور الشامل للإنسان وغايته. فإذا كان الدين قد جاء لتنمية حقيقة الإنسان وإيصالها إلى كمالها، فإن الأحكام هي الوسائل العملية لتحقيق هذا المقصد. فالحلال والحرام ليسا مجرد حدودٍ اصطلاحية أو قوانينٍ وضعية، بل يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بالبنية الوجودية للإنسان، وبقدرته على التخلُّق بالأسماء الإلهية والتجلي بها. فما أحلَّه الله أو حرَّمه إنما كان كذلك لأن بعض الأفعال تضع الإنسان على طريق التشبُّه بالحق تعالى، بينما يقطع بعضها الآخر هذا الطريق أو يسير به في الاتجاه المعاكس. ومن هنا، ينبغي أن تُفهم الأحكام في ضوء التربية، والتخلُّق بالأسماء الإلهية، والتحلي بالأخلاق الربانية.

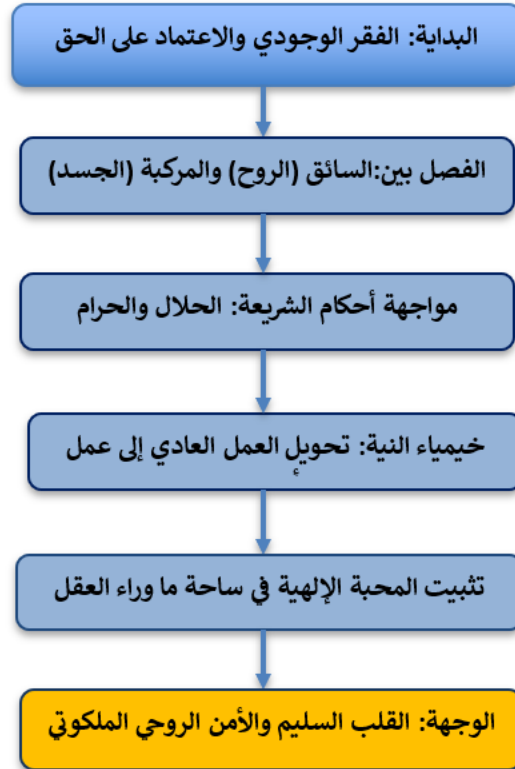
في هذا التصور، لا تُقاس الثروة الحقيقية للإنسان بما يملكه في عالم الطبيعة، وإنما بمقدار ما يكتسبه من الأسماء والصفات الإلهية. ومن ثم، فإن الأحكام ليست إلا الآليات التي تنظم هذا المسار. فإذا كان الفعل يربط الإنسان بمرتبته الوجودية الدنيا، أو يرسخه في عالم الطبيعة، أو يزيد الحجاب بينه وبين الحق، فإنه

يكون مضرًا بسيره الحقيقي. أما إذا وجَّه القلب إلى الله، وخفف من تعلقه بالطبيعة، وجعل النية متجهة نحو القرب الإلهي، فإنه يتحول إلى رصيدٍ وجودي حقيقي للإنسان.

هنا تتجلى الأهمية الجوهرية للنية. فالنية هي العنصر الذي يرتقي بالفعل من مجرد حركة ظاهرة إلى وسيلةٍ للتقرب إلى الله تعالى. فقد يتشابه عملان في صورتهم الخارجية، لكن العمل الذي يترك أثرًا حقيقيًا في البنية الوجودية للإنسان هو وحده الذي أنجز بنية إلهية. فالنية تجعل العمل غذاءً للقلب، ولهذا لا تدخل جميع الأعمال في الرصيد الوجودي للإنسان على حدٍّ سواء. فما بقي منها حبيسًا في دائرة الطبيعة لا ينفذ إلى القلب، أما إذا اقترن بالنية الصادقة والاتجاه إلى الله، تحول إلى ثروة الإنسان الحقيقية.

ومن هنا، لا ينبغي النظر إلى الأحكام على أنها مجرد مجموعة من التكاليف الملزمة، بل هي في حقيقتها وسائل لتربية البواطن الإنسانية وتهذيبها. فالصلاة، على سبيل المثال، شُرعت لذكر الله؛ أي لتعديد توجيهِ القلب من التشتت والغفلة إلى مبدئه. غير أن هذا يكشف أيضًا أن مجرد أداء صورة العبادة لا يكفي لتحقيق حقيقة الدين. فقد يؤدي الإنسان العبادة في ظاهرها، ولكن لا تتحقق فيه حقيقة التدين بمعناها الأصل بسبب غياب الوجهة الحقيقية. إن الدين يتحقق حين يصبح حب الإنسان وبغضه، وولؤه وعداؤه، وسائر ميوله الأساسية، منضبطة على محور الله. أما إذا حافظ على المظاهر الدينية، بينما بقي حبه وبغضه بعيدين عن ميزان الدين، فإنه لم يبلغ حقيقة الدين بعد.

في هذه المرحلة يتضح المعنى الدقيق لمقام التسليم. فالتسليم، في هذا التصور، ليس خضوعًا أعمى، بل هو ثمرة معرفة المرَبِّي. فعندما يدرك الإنسان أن الله هو ربُّه ومرَبِّيه، ويثق بحكمته، يرى أن اتباع شريعته هو عين العقل والحكمة. وكما أن التلميذ يثق بمنهج معلمه ليبلغ مراتب التفوق، كذلك الإنسان يسلم لأحكام ربه ليصل إلى كماله المنشود. هذا التسليم هو أصل الإيمان وجذره، ولا يثبت الإيمان ولا يستقر إلا بحسن التسليم. وكلما ازداد هذا التسليم عمقًا، أصبحت حركة الإنسان الوجودية نحو التشبُّه بالحق أكثر انتظامًا، وأسرع وصولًا إلى غايتها.



الدين، والمحبة، وتحويل التكليف إلى حياة

إذا فُهِمَت الأحكام على مستوى أعمق، اتضحت العلاقة الوثيقة بين الدين والمحبة. فحقيقة الإنسان، في هذا التصور، لا تتمثل في عقلٍ يحسب ويوازن فحسب، بل إن محبة الحق تعالى وعشقه كامنان في صميم وجوده. ومن هنا، كلما ازداد الإنسان عمقاً في الدين، ازداد الدين في نظره حلاوةً وسكينةً وحياةً. وعلى النقيض من ذلك، إذا بقي الدين محصوراً في حدود المظاهر الجافة أو في دائرة التكاليف المجردة، فإنه لم ينفذ بعد إلى أعماق الإنسان وحقيقته. إن غاية الدين هي أن يربي الإنسان على أساس «لا إله إلا الله»، وهذه التربية تبلغ ذروتها حين تتحول علاقة الإنسان بربه من مجرد التكلف والالتزام الظاهري إلى علاقة محبةٍ وشوقٍ ووله.

عند هذه المرحلة، تكتسب العبادة معنىً جديداً. ففي مرتبتها الدنيا قد تكون مجرد أداءٍ للواجب، أما في مرتبتها العليا فإنها تتحول إلى محبوبٍ تتعلق به النفس، وإلى شوقٍ تتطلع إليه. ومن هنا تنبع فضيلة حب العبادة. فالمؤمن يجد في العبادة شعوراً بالعودة إلى موطن حياته الحقيقية. ويتجلى هذا المعنى في صورٍ

مثل علاقة المؤمن بالمسجد، أو شوقه إلى ميدان الجهاد؛ حيث يصبح ما يراه الآخرون شاقًا ومخالفًا للمألوف أمرًا أليفاً ومحبوباً عند الإنسان الذي ربّاه الدين. ومن ثم، فإن المسيرة الدينية ينبغي أن تنتهي إلى مرحلة يصبح فيها التكليف تعبيراً خارجياً عن المحبة، لا عبئاً مفروضاً على الطبيعة.

هذه العلاقة بين الدين والمحبة هي التي تفسر أيضاً كيف يصبح الدين مصدراً للقوة واللذة والطمأنينة. فإذا سار الإنسان في الاتجاه الذي تقتضيه حقيقة وجوده، فإنه لا يتشتت ولا يتفكك، بل يزداد تماسكاً ووحدةً. فتجتمع قواه المتفرقة حول مركز واحد، وينشأ في داخله نوعٌ من الرسوخ والثبات. وهذا الرسوخ هو الذي يتجلى في التجربة الدينية الأصيلة على هيئة سكونية، وانسراح، وقدرة على الصبر، وتجاوز للمحن والأزمات. ومن هنا، فإن الدين ليس مجرد منظومة لتنظيم السلوك، بل هو قوةٌ تعيد بناء الإنسان من الداخل، وتعيد ترتيب عالمه الباطني على نحو ينسجم مع حقيقته وغاية وجوده.

القلب السليم؛ الثروة الحقيقية للإنسان

وفي امتداد هذا المسار، تبرز قضية «القلب السليم» بوصفها الثمرة النهائية للتدين. فإذا كان الإنسان مخلوقاً للحياة الأبدية، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: ما الذي يبقى منه في تلك الحياة، وما الذي يشكل ثروته الحقيقية؟

والجواب في هذا التصور واضح: ليس المال، ولا الأولاد، ولا المكانة الاجتماعية، ولا مجرد تراكم الأعمال الظاهرة، وإنما الثروة الأصيلة الوحيدة هي القلب السليم. والقلب السليم هو القلب الذي لم يستقر فيه غير الله، والقلب الذي تطهّر من كل تعلق ينافس الحق تعالى، حتى أصبح وعاءً لمحبه سبحانه.

وهذا القلب ليس ثمرة لحظة عابرة، بل هو حصيلة سلسلة متواصلة من الاختيارات، والنيات، والطاعات، والاتجاهات التي يتبناها الإنسان طوال حياته. ومن ثم، فإن الاستثمار الحقيقي للإنسان ينبغي أن يكون في بناء هذا القلب. فإذا لم تتحول أعماله إلى غذاءٍ للقلب، فإنها - مهما تركت من آثار كبيرة في الحياة الطبيعية - لا تثبت في رصيده الوجودي شيئاً. أما إذا بلغ العمل مرتبةً تتحقق فيها المحبة، والوله، وحضور القلب، فإنه يتحول إلى رأس المال الباقي للإنسان. ومن هنا تتضح العلاقة بين العمل والثروة؛ فالعمل لا يصبح ثروة حقيقية إلا إذا استقر في القلب، وصاغه على النهج الإلهي.

من هذا المنطلق أيضًا تتضح الصلة بين القلب السليم والطمأنينة. فالقلق، والحزن المستمر، وانعدام الأمن النفسي، والاضطرابات الداخلية، كلها في هذا التصور علامات على وجود خلل في بنية القلب. فالقلب الذي يعتمد على غير الله، يظل بقدر تعلقه بالأمور الزائلة عرضةً للقلق والخوف. أما القلب الذي انتظم على محور الحق، فإنه يبلغ مقام الثبات؛ لأنه متصل بما لا يعتريه زوال ولا نقص.

ولهذا، فإن السكينة والفرح ليسا مجرد حالتين نفسييتين عابرتين، بل هما علامتان وجوديتان تدلان على سلامة القلب. ومن هنا يمكن اعتماد معيار مهم، وهو أن الأمن الروحي يُعد أحد أبرز المؤشرات على صدق التدين وحقيقته.

الدين، والخوف، والأمن الروحي

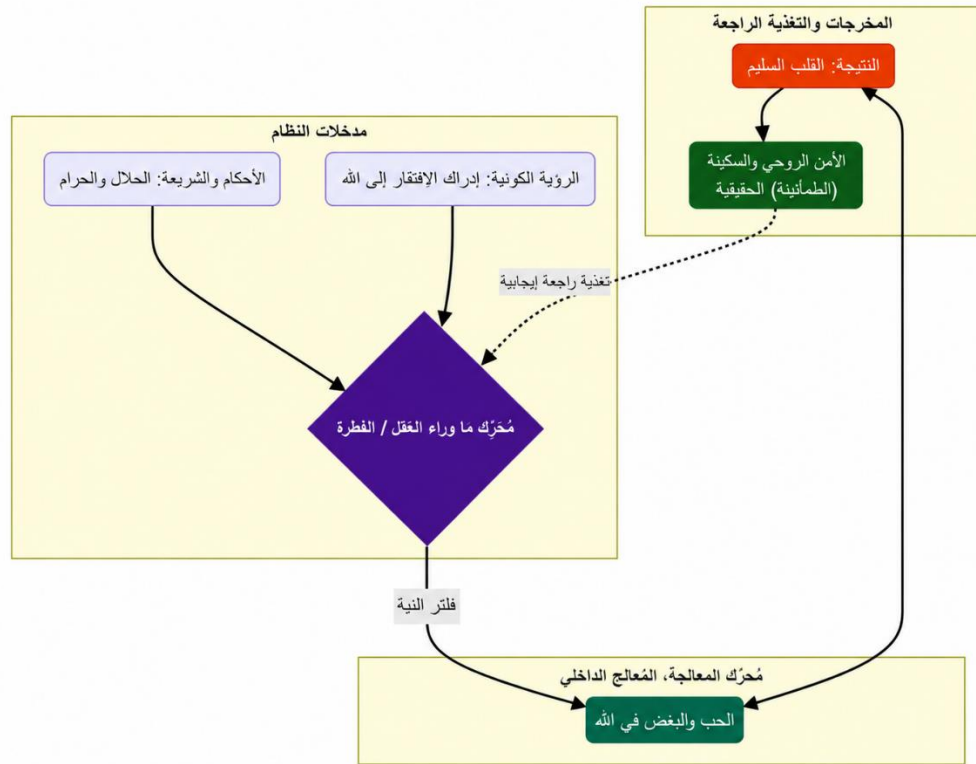
من أبرز آثار الابتعاد عن الدين انتشارُ الخوف في كيان الإنسان. والمقصود بالخوف هنا ليس مجرد استجابة غريزية للخطر، بل حالة من انعدام الأمن البنيوي للنفس؛ وهي حالة يفقد فيها الإنسان مرتكزه الوجودي، فيغدو مضطربًا أمام المستقبل، والماضي، والآخريين، بل وحتى أمام نفسه.

ومثل هذا الخوف يصبح منشأً لكثير من الرذائل؛ كالحسد، والكبر، واليأس، والعدوان، وسرعة الانفعال، ومختلف صور التراجع والانكسار النفسي. فالإنسان الخائف، حفاظًا على ذاته المهزوزة، لا يسلك إلا أحد طريقين: إما أن يلجأ إلى الهجوم، وإما أن ينتهي إلى الانفعال والاستسلام.

ومن ثم، فإن الانفصال عن الدين يساوي الانفصال عن الأمن؛ لأن الدين يصل الإنسان بمرتكزه الحقيقي. وكلما ضعفت هذه الصلة، اتسع المجال لهجمات الشيطان. ولذلك، فإن الإنسان المحروم من الاطمئنان الذي يمنحه الدين لا يفقد ثباته في الأزمات الكبرى فحسب، بل يفقده حتى في مجريات حياته العادية. فهو يقح بسهولة في الاضطراب، وسوء التقدير، والانكسار الداخلي.

وفي المقابل، فإن الدين، بما يخرسه من أمنٍ روحي، يهب الإنسان القدرة على تجاوز العقبات والمصائب. وهذا الأمن ليس مجرد تجربة فردية، بل تترتب عليه آثار اجتماعية أيضًا. فكلما ترسخت البنية الدينية في الأسرة والمجتمع، ابتعدت العلاقات الإنسانية، إلى حدٍّ كبير، عن العنف، والجريمة، والاضطراب؛ لأن جانبًا مهمًا من الاختلالات الاجتماعية ليس إلا انعكاسًا لذلك الشعور بانعدام الأمن الكامن في نفوس الناس.

وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار **الطمأنينة الروحية** أحد المعايير التي يُقاس بها مدى الحضور الحقيقي للدين في الإنسان. فالدين الذي لم يستطع بعدُ أن يزرع الأمن في أعماق النفس، إما أنه لا يزال متوقعًا عند مستوى التقليد، أو أنه بقي في مرحلة الفهم العقلي النظري، ولم ينفذ بعد إلى ساحة القلب والمحبة. وكلما ازداد حضور الله في وجود الإنسان، تهاوت المخاوف الزائفة، وابتعد الإنسان عن التزلزل الناشئ من تعلقه بعالم الطبيعة.



٢٨ مواجهة المشكلات وغلبة الفطرة على الطبيعة

إذا كانت المشقات تقع على الجانب الطبيعي من الإنسان، وإذا كان الدين يسعى إلى تقوية جانبه الفطري، فإن مواجهة المتدين للصعوبات لا تكون مجرد تحمُّلٍ اضطراري للألم. بل يستطيع أن يتجاوز مستوى «أداء الواجب» ليصل إلى مرحلة يسير فيها في الطريق الشاق بدافع الحب والشوق. والفارق بين هذين المستويين فارقٌ جوهري وعميق. ففي المستوى الأول، لا يزال الإنسان يعيش حالة من المساومة بين جانبه الطبيعي

وبين الأحكام الإلهية؛ أما في المستوى الثاني، فإن القلب يكون قد اتجه نحو الحق، وعندئذٍ تكتسب المشقة معنىً جديدًا.

من هذا المنطلق، يمكن للمصائب أن تُفهم فهمًا إنسانيًا، بل وأن تكتسب بُعدًا جماليًا أيضًا. فعندما تغلب الذات الحقيقية على الذات الطبيعية، لا يعود الألم مجرد تجربةٍ للفقد والانكسار، بل يتحول إلى ميدانٍ تتجلى فيه الحقيقة. وتبلغ هذه الحقيقة ذروتها في التجارب التي لا تؤدي فيها أشد أنواع الفقد والضغوط إلى الشكوى والتذمر، بل تفضي إلى شهود الجمال. هذا المستوى من المواجهة ليس ثمرة شعارات أو إثارات عاطفية، بل هو نتيجة استقرار علاقة وجودية جديدة في الإنسان؛ علاقة يكون فيها الحق قد استولى على القلب، وتراجعت الطبيعة إلى الهامش. وفي مثل هذا المقام، لا يكون الدين سببًا في فرض المعاناة، بل يصبح مصدرًا يمنح المعاناة معناها، ويفتح للإنسان طريق العبور من المستوى الطبيعي للمصيبة إلى أفقٍ أسمى وأعمق.

المتدين الفطري والمتدين الطبيعي

وهنا يمكن الوصول إلى تمييزٍ مهم آخر: الفرق بين التدين الفطري والتدين الطبيعي. فالمتدين الطبيعي قد يحافظ على الأشكال الدينية، وقد يتعلق بالمقدسات تعلقًا ظاهريًا، بل وقد يُظهر حضورًا جادًا في ميدان العمل، إلا أن اتجاهه الأساسي لم يتجاوز بُعد حدود الطبيعة. ولذلك يبقى تدينه عرضة لآفاتٍ مثل حب الذات، والرياء، والتعصب، والتوقف عند الظاهر. أما المتدين الفطري فهو الذي تكون حقيقة الدين قد نفذت إلى ساحة فطرته، حتى أصبحت الأشكال الدينية بالنسبة له نوافذ تطل على الحق، لا أدواتٍ لتثبيت ذاته الطبيعية أو تعزيزها.

ويمتد هذا التمييز ليظهر بوضوح في نمط الحياة أيضًا. فأسلوب الحياة الإيماني يقوم على سوء الظن بالنفس، وحسن الظن بالآخرين. مثل هذا الإنسان لا يغتر بعباداته وأعماله، ويبتعد عن النرجسية الدينية، بل حتى في علاقته بحسناته يبقى في حالة استغفار؛ لأنه يدرك أن هناك مسافة كبيرة بين ما هو عليه وبين ما ينبغي أن يكون عليه.

وهذا التواضع ليس ناشئًا عن ضعف، بل عن فهمٍ عميق لعلاقة الإنسان بالكمال المطلق. وعلى العكس من ذلك، كلما أدى التدين إلى التعالي وطلب التفوق، أمكن الاستنتاج أن هذا التدين لا يزال متوقفًا في المستوى الطبيعي ولم يبلغ مرتبة الفطرة بعد.

الدنيا والآخرة وأفق الحياة النهائي

وتكتمل جميع هذه المباحث في نهاية المطاف ضمن أفق العلاقة بين الدنيا والآخرة. فإذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة، فإن معنى ذلك أن الحياة الدنيوية ليست هي المقصد النهائي، بل هي ساحة للزرع وصناعة الرصيد الأبدي. وإن قصرَ عمر الدنيا بالنسبة إلى امتداد البرزخ والآخرة يقتضي أن تكون قيمة الإنسان أيضًا متناسبة مع هذا الأفق الواسع. وفي مثل هذا النظام، فإن ما يُبنى في الدنيا هو الحقيقة الوجودية للإنسان، لا مجرد موقعه المؤقت. ومن ثم، فإن جميع عناصر الدين، من المعرفة والإيمان إلى الأحكام والأخلاق والعبادة، تتجه نحو بناء ذلك القلب الذي يمكن به لقاء الرب، من غير أن يكون فيه غيره حاضرًا.

وعليه، فإن الإنسان المخاطب بالدين ليس إنسانًا يحتاج إلى الدين لمجرد تنظيم حياته اليومية، بل هو كائن خُلِق من حيث حقيقته الوجودية للحياة الأبدية، والدين هو خريطة طريق هذه الحياة. وإذا اتضح هذا المعنى، اتضحت معه مكانة جميع المفاهيم الأساسية: فتغدو معرفة النفس ضرورة، وتصبح معرفة الله عبر النفس ذات معنى، وتتحوّل الأحكام إلى أدوات تربوية، ويصبح الحب والعبادة مركز التدين، ويُتخذ الأمن الروحي معيارًا للتقييم، ويظهر القلب السليم بوصفه الثروة الوحيدة الباقية.

الخلاصة

إن القضية الأساسية في فهم الدين هي فهم الإنسان بوصفه المخاطب بالدين. فكلما عرّف الإنسان نفسه من خلال طبيعته، ورغباته، ومخاوفه، واحتياجاته الأدنى، بدا له الدين مجموعةً من القيود والتعارضات. أما إذا تبين أن حقيقة الإنسان تكمن في جانبه الفطري، والإلهي، وما وراء العقلي، عندئذٍ يظهر الدين كنظامٍ عقلانيٍّ ضروريٍّ تمامًا؛ نظامٌ وُضِع لحفظ علاقة الإنسان بمبدئه، وتنظيم قواه الداخلية، وتربية طبيعته لخدمة فطرته، وإيصاله إلى القلب السليم.

وفي هذا الأفق، تصبح «لا إله إلا الله» القاعدة الأساسية لحياة الإنسان، وتتحوّل الأحكام إلى أدواتٍ للتشبه بالحق، ويصبح النية عنصرًا يحوّل العمل إلى رصيد وجودي، وتغدو الطمأنينة والأمن علامة حضور الدين الحقيقي في أعماق الإنسان، ويظهر القلب السليم بوصفه الغاية النهائية لهذا السير.

وعلى هذا الأساس، فالدين ليس أمراً إضافياً في حياة الإنسان، بل هو شرط ازدهار حقيقته الوجودية. وكلما اقترب الإنسان من هذه الحقيقة، ابتعد عن ذاته الطبيعية، واقترب من ذاته الحقيقية، وهذا الاقترب هو المعنى الحقيقي للحياة، والكمال، والنجاة.